ابرام تيرتز
بْخَنْتَسْ

التقيته اليوم من جديد في المصبغة . تظاهر بانه لم ينتبه لوجودي ، وبالانشغال التام بغسيله الوسخ .

ظهرت اولا الشراشف ، — وهم يستعملونها لغايات صحية . وكانت كلمة « القدمان » مطرزة باحرف صغيرة على احد طرفي كل شرشف منها . وهم يلجأون الى ذلك من قبيل الاحتياط ، لئلا يلمس المرء بشفتيه بقعة كانت قدماه قد حفتا عليها ولوثتاهـا في الليلة السابقة .

وهم على الاساس ذاته يعتبرون رفسة القدم عملا اكثر تحقيرا بكثير من لكمة اليد ، وليس ذلك لمجرد ان ايذاء القدم اشد . بل لعل في هذا التمييز دلالة على ان المسيحية ما تزال موجودة صامدة : فلا شك ان القدم هي اكثر اثما من سائر اجزاء الجسد الاخرى ، لسبب بسيط ، هو انها ابعد هذه الاجزاء عن السماء . وليست نظرتهم اسوأ سوى الى الاعضاء الجنسية وحدها ، وهذا مدعاة لبعض الاستغراب .

وتلتها بيوت المخدات ، وفي وسطها بقع داكنة . ثم المناشف ، التي تتسخ ، على عكس بيوت المخدات ، عند الاطراف اسرع منها في الوسط ؛ واخيرا اكوام الملابس الداخلية الخاصة من كل لون .

وسرعان ما شرع يقذف بحاجياته بسرعة فائقة جعلت من المتعذر عليّ ان اتفحصها بامعان . لعله اراد ان يحتفظ بسر ما ، او ربما كان ، ككل الناس ، يستحي من عرض اشياء متعلقة علاقة غير مباشرة بساقيه .

لكن بدا مريبا لي انه يجلب للمصبغة ملابس مهترئة . فالحُدْب نظفاء في العادة . فهم يتخوفون من ان تزيد ملابسهم في الاشمئزاز الذي يجتذبونه اصلا . لكن هذا الاحدب كان عديم الترتيب ، على عكس ما يتوقع ، وكأنه ليس باحدب مطلقا .

بل ان الموظفة في المصبغة ، وهي امرأة تعودت على كل شيء ، وليست الآثار التي تخلفها العصارات النادرة جدا بالامر الغريب عليها ، لم تستطع ان تتمالك نفسها وقالت له بصوت مرتفع لحد ما : « ما هذا ، ايها المواطن ؟ تدفع بها في وجهي ؟ ان كنت لا تعرف

كيف تسلمني اياها بترتيب ، فاغسلها بنفسك ! »

ودفع المبلغ دون ان ينبس ببنت شفة وولى مسرع الخطى . ولم الحق به كي لا اثير الانتباه.

في البيت كان كل شيء على عادته . ما كدت ادخل حتى ظهرت فيرونيكا . واقترحت عليّ ، وهي تخفض جفنيها حياء ، ان نتناول العشاء معا . ولم يكن بوسعي ان ارفض دعوة هذه الفتاة : فهي الوحيدة في هذه الدار التي تعاملني معاملة حسنة . من المؤسف ان يكون حنوها قائما على اساس الجاذب الجنسي . وكان هذا واضحا تمام الوضوح بعدما حدث اليوم .

سألت فيرونيكا : « كيف حال كوستريتسكايا ؟ » ، محاولا ان اوجه الحديث نحو اخصامنا المشتركين .

« آه ، يا اندريه كازيميروفيتش ، لقد كانت تهدد وتتوعد من جديد » .

« ما خطبها ؟ »

« كالعادة . النور المتروك في غرفة الحمام ، وارضها المطرطشة كلها بالماء . لقد اعلنت كوستريتسكايا انها ستتشكى لمدير البناية » .

اثار هذا النبأ سخطي . اني استعمل المرحاض اقل مما يستعمله اي من الآخرين . ولا اذهب الى المطبخ الا فيما ندر . الا يحق لي ان استعيض عن المطبخ باستعمال الحمام ؟

اجبت بخشونة : « دعيها تتشكى . انها ذاتها تصرف كيلووات وكيلووات من النور . واولادها كسروا لي قنينتي . فليأتِ مدير البناية » .

لكني ادركت ان اللجوء الى الموظفين للتدخل يتضمن مخاطرة كبيرة من جانبي . فلماذا الفت النظر اليّ دونما حاجة ؟

قالت فيرونيكا : « خفف من غضبك ، يا اندريه كازيميروفيتش . سأسوي انا سوء التفاهم هذا . خفف من غضبك ، ارجوك » .

ومدت يدها لتمس جبيني ، لكني تمكنت من التملص . « لا ، لا ، انا بصحة جيدة ، وليس من حمى . فلنأ كل » .

كان الطعام على المائدة ، ينبعث منه البخار والرائحة الخبيثة . لقد ادهشتني على الدوام النزعة السادية في النشاطات المطبخية . فراخ الغد يأكلونها اليوم بشكل سائل . احشاء الخنازير يحشونها بلحمها هي . امعاء تبتلع ذاتها ، وقد صب عليها سقط الدجاج — اليس هذا ، في الواقع ، ما هو البيض المقلي والمقانق ؟

اشد قسوة من هذا بكثير ، الطريقة التي يعاملون بها القمح : انهم يقطفونه ، ويطرقونه ،

ويحرشونه غبارا . هل من غرابة اذاً ان يجيء « الدقيـق » و « دق » العنوق من جذر واحد ؟

«تناول طعامك ، يا اندريه كازيميروفيتش » ، قالت فيرونيكا متوسلة . « لا تزعج نفسك ، ارجوك . سأتحمل انا الوزر كله » .

وماذا اذا اعدوا كائنا بشريا بالشكل ذاته ؟ اذا اخذوا شخصا ما، مهندسا او مؤلفا ، وحشوه بدماغه هو ، وشكّوا بنفسجة في شق مجعد من شقي انفه، وقدموه لاقرانه للعشاء؟ لا ، ان آلام المسيح وجون هص وستينكا رازين لهي اشياء لا تذكر اذا قورنت بالعذاب الذي تتعرض اليه سمكة يجذبونها بعنف من المياه على صنارة . ان اولئك كانوا ، على الاقل، يعرفون لماذا حدث كل ما حدث .

وسألت فيرونيكا، وهي تدخل الغرفة حاملة غلاية: « قل لي، يا اندريه كازيميروفيتش، اتشعر بالوحشة لحد كبير ؟» وكنت ، فور خروجها من الغرفة لتجلب الغلاية ، قد افرغت صحني بين طيات صحيفة .

« هل كان لديك اصدقاء ما ؟» — وضعت سكرا — « او اطفال ؟ » — ملعقة اخرى من السكر — « او امرأة كنت تحبها ؟ » — وراحت تحرك وتحرك .

كان واضحا من كل الظواهر ان فيرونيكا مضطربة .

شرعت اجيبها بحذر : « انت بديلي عن الاصدقاء جميعا . اما عن النساء ، فبوسعك ان تري بنفسك : اني متقدم في السن واحدب » . وكررت ، بعناد وثبات : « متقدم في السن واحدب » .

كان قصدي في الحقيقة ان اقطع دابر اعترافها بالحب : فما حاجتي له ، والحياة بدونه صعبة بما فيه الكفاية ؟ اتستحق اثارةُ اهتمام شديد بي انا لدى فتاة عزباء، المخاطرةَ بحلفنا ضد جيراننا الحاقدين ؟

كنت على استعداد ، كيما اتجنب المشاكل ، لان اتظاهر باني سكير مدمن . او مجرم . او ربما ، وهو افضل ، مختل عقليا ، او شاذ جنسيا . لكنني كنت اتخوف :فقد تضفي عليّ كل صفة من هذه الصفات في نظر صديقتي هالة من الاخطار والاسرار .

لم يبقَ لي الا ان اشدد على حدبتي وعمري ومرتبي الزهيد، ووظيفتي التافهة كمحاسب، التي تستهلك جانبا كبيرا من وقتي ، وان اصر على ان شخصا مثلي، احدب ، لا يمكن ان تناسبه غير امرأة حدباء ، في حين ان المرأة الطبيعية الجميلة تحتاج الى رجل متناسق الاجزاء والتركيب .

قالت فيرونيكا بعزم : « لا ، انت نبيل جدا . يخيل اليك انك سقيم عاجز وتخشى

ان تكون عبئا . لا تظن ان القضيةقضية شفقة من جهتي . اني ببساطة احب الصبير ، وانت تشبه الصبير . انظر كم منها قد نثرتها تنمو على عتبة شباكك ! »

ولمست اصابعها الدافئة يدي . وانتفضت ، كأن ماء ساخنا قد حرق يدي .

« انك مجلد ، أبك مرض ؟ » سألتني فيرونيكا بقلق ، وقد حيرتها درجة حرارة جسمي .

كان هذا فوق ما استطيع ان اتحمل ، فتحججت بصداع اليم ، وطلبت اليها ان تتركني .

« الى الغد » ، قالت فيرونيكا ، وهي تلوح بيدها ، كطفل . « وبوسعك ان تعطيني صبيرة غدا . اعرف انك ستفعل » .

كلمتنيهذه المرأة الشابة الرفيقة بلهجةمدير المحاسبين .اعترفت بحبها وطالبتبالجزاء.

اين قرأت ان الانسان اذا احب اضحى اشبه بعبد مطيع ؟ هذا ليس صحيحا البتة . ما على الانسان الا ان يقع في شراك الحب ، ليأخذ يشعر في الحال بانه رب وسيد ، وبان له الحق بان يصدر اوامره لكل من لا يحبه كفاية . كم اتمنى الا يحبني احد !

وعندما بقيت لوحدي ، بدأت اسقي الصبيرات عندي ، واطعمها ببطء ، من فنجان مطلي بالميناء — اطفالي المحدودبات — واسترحت .

كانت الساعة الثانية صباحا وشعرت باني اكاد اموت من الجوع ، فاسترقت الخطى على رؤوس اصابعي مرورا بالممر المعتم الى غرفة الحمام . وهناك تمتعت بوجبة فاخرةحقا ! شاقّ جدا هذا ، ان آكل وجبة واحدة في اليوم .

مر اسبوعان منذ تلك الامسية . وانبأتني فيرونيكا ان ملازما في الجيش وممثلا من مسرح ستانيسلافسكي يخطبان ودها . لكن هذا لم يمنعها عن اعطائي انا الافضلية . وهدتني بان تحلق شعر رأسها كيلا اجرأ على التحدث مرة اخرى عن جمالها وعن انه من السخف ان تضحي به في سبيل رجل قبيح مسن . واخيرا فكرت في ان تتجسس عليّ ، وان تقبع في انتظاري وانا في طريقي الى غرفة الحمام.

« النظافة تضفي على الجُدُب الجمال » — هذا هو الجواب التقليدي الذي ارد به على تساؤلاتها عن سبب اغتسالي بكثرة .

ومهما يكن من امر ، فاني بدأت اغلق النافذة ما بين الحمام والمرحاض بلوح خشب كثيف . وعمدت على الدوام الى التأكد من ان الباب مقفول قبل ان ابدأ بنزع الثياب عني.

فلم اكن استطيع تحمل الخاطر بان احدا ما قد يكون يراقبني .

صباح الامس اردت ان املأ قلمي بالحبر واتابع يومياتي غير المنتظمة . فقرعت باب غرفتها . لم تكن فيرونيكا قد نهضت من فراشها بعد ، وكانت تستلقي فيه وتقرأ « الفرسان الثلاثة » .

قلت لها ، محييا بتأدب : « ستتأخرين عن المحاضرة » .

فاغلقت الكتاب وقالت : « هل تعرف ان البناية بكاملها تنظر اليّ على انني خليلتك ؟ »

غير اني لم اتفوه بكلمة ، وعندئذ حدث شيء فظيع . برقت عينا فيرونيكا ،وقذفت عنها غطاءها ، وراح يحملق فيّ بغضب جسدها كله المكشوف بكامله . « انظر ، يا اندريه كازيميروفيتش ، الى ما قد رفضته ! »

قبل حوالي خمسة عشر عاما وقع تحت يدي كتاب في علم التشريح . ولما كنت ارغب في الوقوف على حقائق الاشياء ، فاني درست بعناية جميع الصور والرسوم التي فيه . وفيما بعد اتيحت لي ، في منتزه غوركي للثقافة والاستراحة ، فرصة مراقبة بعض الاولاد الصغار يستحمون في النهر . الا ان مشاهدة امرأة حية عارية ، وبمثل هذا القرب الشديد ، لم تكن قد حدثت لي حتى الآن من قبل .

اعود فاقول ، كان شيئا فظيعا . بدا لي ان جسدها كله بذات اللون الابيض غير الطبيعي الذي كان به عنقها ووجهها وذراعاها. وكان يتدلى من امامها زوجان من الاثداء البيض. وخيل لي اول الامر انها زوجان ثانويان من الاذرع وقد بترا فوق المرفقين . غير ان كلا منهما كان ينتهي بمصاصة مستديرة كأنها زر جرس كهربائي .

بعد هذا ، ونزولا حتى الساقين ذاتيهما، كان يحتل الفسحة الخالية برمتها بطن كروي. هنا كان يتجمع في كومة واحدة الطعام الذي تزدرده طوال اليوم . وكان الجزء السفلي منه يغطيه شعر متجعد ، كرأس صغير .

لوقت طويل كانت مشكلة الجنس تزعجني ، وهي المشكلة التي تلعب دورا اوليا في حياتهم الفكرية والخلقية . وقد غُلفت ، منذ العصور القديمة ، ضنا بالسلامة كما اعتقد ، بحجاب من السرية لا يخترق . فحتى في كتب التشريح لا نجد شيئا عن الموضوع ، وما نجده فيها عنها عرضي ومبهم ، فلا يمكن ان يعرف المرء ما المقصود على وجه التدقيق .

لهذا فاني قررت الآن ، وقد تغلبت على هلعي ، ان اغتنم الفرصة المؤاتية وان اصوب نظري على المكان الذي تروي لنا الكتب التشريحية المدرسية ان عدة الولادة تكمن فيه ، بحيث تقذف ، كمنجنيق ، باطفال جاهزي الصنع .

وهناك وقع بصري على شيء شبيه بوجه بشري . سوى انه لم يبدُ لي مؤنثا ، بل

بدا اشبه بوجه رجل في منتصف العمر ، غير حليق ، كاشف عن اسنانه .

كان يقطن بين ساقيها رجل جائع مغضب . من المحتمل انه يشخر في الليالي ، ويحتال على الضجر بالشتائم . لا بد ان هـذا مصدر طبيعة المرأة المزدوجة ، التي قـال عنها ليرمونتوف واجاد في قوله :

« فاتنةٌ كملاكٍ سماوي ،
كشيطانٍ مكارةٌ آثمة » .

لم اتمكن من تفحص الامر بكامله ، لان فيرونيكا انتفضت على حين غرة وقالت : « تعال اليّ » .

واقفلت عينيها وفتحت فمها ، كسمكة مسحوبة من الماء . وراحت تتقلب بعنف في الفراش ، كسمكة بيضـاء ضخمة ، عبثا وبدون جدوى ، بينما اخـذت تغطي جسدها حبيبات يميل لونها للزرقة .

« سامحيني ، يا فيرونيكا غريغوريفنا » ، فلت بخفر ، « سامحيني . لكن الوقت قد حان الآن لان اذهب الى عملي » .

وانطلقت ذاهبا ، وانا احاول الا اضرب الارض برجلي والا التفت خلفي .

في الشارع كان المطر يتساقط ، لكني لم اكن في عجلة : فاليوم يوم التنظيف في الدائرة . لقد تخلصت من فيرونيكا ، متذرعا بواجبي الرسمي (الحسابات ، النيكوتين ، مدير المحاسبين جيكوف ، السكرتيرات الحمقاوات — كل هذا لقاء ٦٥٠ روبلا في الشهر) ، فكان بامكاني ان اسمح لنفسي بهذا الترف الكمالي ، بمشوار في الهواء الطلق في يوم ماطر .

ووجدت بالوعة مثقوبة ، ووقفت تحت الماء المنصب منها . وانساب الماء نزولا من على رقبتي ، منعشا طيبا ، وبعد حوالي ثلاث دقائق كنت مبللا بما فيه الكفاية .

كان المارة يجتازون من قربي مسرعين ، وهم يحملون مظلات ويلبسون كالوشات من المطاط ، فينظرون اليّ باطراف عيونهم ، وقد استلفت نظرهم تصرفي .. وكان عليّ ان ابدل وضعي ، فرحت امشي في برك الماء ، الواحدة بعد الاخرى ، عوضا عن ذلك . وكان حذائي يسمح للماء بدخوله بشكل حسن . في القسم السفلي مني ، على الاقل ، كنت اشعر بالمتعة والسرور .

« آه يا فيرونيكا ، آه يا فيرونيكا » ، رحت اكرر بحنق . « لماذا بلغت بك القسوة حد الوقوع في حبي ؟ لماذا لم تشعري ولا بقليل من الخجل من مظهرك الخارجي ، وتصرفت بهذه الصراحة التي لا تغتفر ؟ »

وبعد ، فالخجل في الانسان هو فضيلته الرئيسية . انه ادراك الانسان القاتم ببشاعته

بشاعة لا يمكن التبديل فيها ، والرعب الفطري مما يخبئه تحت ثيابه . ان الخجل وحده ، الخجل والمزيد من الخجل ، هو الذي يمكن ان يضفي عليه بعض النبل وان يجعله لا اكثر جمالا وانما اكثر تواضعا على الاقل .

طبيعي اني ، عندما الفيت نفسي هنا ، اتبعت نمط الحياة العام في هذا المكان . فعلى المرء ان يراعي شرائع البلد الذي يضطر لان يعيش فيه . يضاف الى هذا ان الخطر الماثل ابدا امامي ، من انه سيلقى القبض عليّ ويكشف سري ، اضطرني الى ان الف جسمي كله بهذه الثياب التنكرية البالية .

لكن لو كنت مكانهم ، لما نزعت عني معطفي الفرو ، فكم بالحري بدلتي ، لا خلال النهار ولا خلال الليل . ولفتشت عن جرّاح تجميل يقصر من طول ساقي ، ويضع على الاقل حدبة على ظهري . ان الحُدْب هنا اوسم حتما من سائر الناس، مع انهم مسوخ قباح هم ايضا .

وتوجهت صوب شارع هرتزن وصدري يضيق بالكآبة . ذلك الاحدب ذاته كان يستأجر غرفة ارضية مقابل معهد الموسيقى . لقد لبثت اراقبه شهرا ونصف شهر – اراقب هذا الرجل الرشيق المقوس الظهر ، الذي لم يكن يشبه الكائنات البشرية، وكان يذكرني بشكل من الاشكال بشبابي الذي لا سبيل الى ان يسترد .

ثلاث مرات متتالية رأيته في المصبغة . ومرة في دكان ازهار كنت قد ذهبت اليه لاشتري صبيرة . وساعدني حسن حظي على ان اتعرف ، عن طريق وصل الغسيل الذي دفع به الى الموظفة في المصبغة ، الى عنوان منزله .

كان الوقت قد حان لوضع النقاط على الحروف .

قلت لنفسي ان هذا مستحيل ، ان الجميع قد هلكوا وانا وحدي الذي نجوت ، على شاكلة روبنسون كروزو . بل اني بنفسي صفيت بيدي كل ما كان قد بقي بعد الاصطدام. لا ، ليس هنا من احد سواي .

لكن ماذا اذا كانوا قد ارسلوه ليبحث عني ؟ متظاهرا بانه احدب، متنكرا ... انهم يبدون اهتماما بي ! تنبهوا فجأة الى ما حدث ، وارسلوا من يبحث عني !

لكن من اين لهم ان يعرفوا ؟ بعد اثنتين وثلاثين سنة . حسب التوقيت المحلي ، لكن مع هذا . حي وبصحة جيدة . هذا شيء ليس بالقليل .

لكن لماذا هنا على وجه التدقيق ؟ هذا هو السؤال. لم يكن في مخطط احد المجيء الى هذا المكان . اتجاه مغاير تماما . مثل هذه الاشياء لا تحدث . لقد ضللنا الطريق . سبعةً ونصفا . علقة سخنة .

ربما كان ذلك بمحض الصدفة ؟ الهفوة ذاتها . ابتعاد عن الطريق المخطط وعن توقيت الشتاء . اول مكان نصادفه . بالطبع هناك مصادفات . متماثلان كحبتين من الحمص . حيث لم يطأ احد بقدميه . وان يكن ؟ متنكرا بزيّ احدب . مثلي بالتمام . ولو انه وحده مثلي بالتمام !

فتحت الباب امرأة شديدة الشبه بكوستريتسكايا . لكن كوستريتسكايا هذه كانت اضخم حجما واكبر سنا . كانت تنبعث عنها رائحة الليلك ، اقوى من الرائحة الطبيعية بعشر مرات . عطر ، لا شك .

« سيعود ليوبولد عما قريب . تفضل ، ارجوك » .

وانبعث نباح كلب لم أره من اعماق الممر . لكنه لم يعقد النية على الوثوب عليّ . وكانت قد سبقت لي اختبارات سيئة مع امثال هذا الحيوان .

« ما بك ؟ انها لا تعض . اجلسي ، يا نيكسا ، اصمتي ! »

وقام بيننا نقاش رفيق بينما تابعت الكلبة زمجرتها ، ثم ظهرت من الابواب الجانبية رؤوس ثلاثة ، ونظرت اليّ من فوق الى تحت باهتمام . وشرعت تمطر الكلبة بالسباب . كانت الضوضاء فظيعة .

دخلت الغرفة وانا اقوم بمخاطرة كبيرة ، وكان فيها صبي يتقلد سيفا . وعندما رآنا طلب صحنا من التوت والسكر ، واخذ يولول ويزعق ويزوي وجهه ويلوي مؤخرته .

قالت كوستريتسكايا مفسرة : « انه يحب الحلويات . مثلي بالتمام . كفّ عن الزعيق والا فان عمك هذا سيأكلك » .

قلت مازحا ، ارضاء لمضيفتي ، اني عوضا عن الشورباء احتسي دم الاطفال المسخّن . فهدأ الطفل في الحال . والقى سيفه ورمى بذاته في ابعد قرنة في الغرفة . ولم يمل بعينيه عني . وكانتا مليئتين بالخوف ، كخوف الحيوان .

« هل يشبه ليوبولد ؟ » سألتني كوستريتسكايا ، كأنما بمحض الصدفة ، ولكن باختلاج رقيق في صوتها .

تظاهرت بتصديق ما المحت اليه . كان الجو الخانق وما ارتبط به من تضوع الليلك ، قد جعلني اشعر بالدوران . وتأثر جلدي بمفعول الرائحة ، فانتثر الطفح في بضعة مواضع فيه . وخشيت ان يتشقق وجهي في بقع خضراء متفرقة .

وفي الممر كانت نيكسا الهائجة ترعد وتزبد وتخدش الارض باظفارها وتشمشم آثار اقدامي بصوت مرتفع . وشرعت النزيلات يتهامسن فيما بينهن ، غير مدركات ما امتع به من ملكات سمع رهيفة لحد فائق .

« واضح انه شقيق ليوبولد سيرغفتش ... »

« لا ، غير ممكن ، ان احدبنا ان قورن بهذا لهو توأم لبوشكين » .
« ليحمنا الله من رؤية شيء مثل هذا في حلم ... »
« حتى النظر اليه يلعي المعدة ... »

انقطع هذا كله نتيجة وصول ليوبولد. واتذكر اني اعجبت بالطريقة التي لعب بها دوره في الحال ، الدور الكلاسيكي لاحدب يلتقي مسخا مماثلا له على مرأى من غرباء .

« آه ! زميل في التعاسة ! الى من لي الشرف ... الى ماذا ادين ...؟ »

كان يقلد نمطا نفسيا دقيقا كبيت عنكبوت : الكبرياء تحميها السخرية من الذات ، والخجل يختبىء تحت ستار المجون . وامتطى كرسيه كخيّال ، وقد عانقت ساقاه المقعد ، وقفز واقفا ، وجلس من جديد وظهره للامام ، ملقيا برأسه على خلفية الكرسي ، ولاعبا بوجهه العابا غريبة ، ولم ينقطع عن هز كتفيه وكأنه يحس حدبته التي كانت تطل عليه كقمطر المسافر .

« اجل ، اجل . اذاً فانت اندريه كازيميروفيتش . واسمي انا (ويا للدعابة) ليوبولد سيرغفتش . وانا ايضا ، كما تلاحظ ، احدب بعض الشيء » .

اعجبني هذا الكاريكاتور البارع للبشرية ، هذ الفن الطبيعي جدا لانه لا معقول ابدا ، وادركت بشيء من الاسى تفوقه عليّ في فن الحياة ، وعجزي عن مجاراته في اقتحام الشكل الوحيد الممكن لنا على الارض ـ شكل المسوخ الحُدْب ومحبي الذات المعرضين ابدا للاذية .

لكن الوقت وقت عمل ، وجعلته يفهم اني اود ان احادثه — على حدة .

قالت كوستريتسكايا باستياء : « لن يضيرني الذهاب » ، وانصرفت وقد سلقتني بدفقة وداعية من اريجها الحارق .

انتقمت منها بخاطر جال في رأسي : من انها مشبعة بهذه الرائحة في كل انحاء جسمها. حتى برازها لا بد ان تكون له رائحة العطر ، عوضا عن البطاطا المسلوقة والمآكل البيتية ، كما هي الحال في العادة . ولا بد انها تبول انقى انواع الكولونيا . في هذا الجو سرعان ما سيبدأ ليوبولد التعس ، هو ايضا ، ينتن .

عندما اضحينا لوحدنا ، باستثناء الصبي الذي جلس كقطعة حجر في القرنة القصية وعلى وجهه تطليعة مبهورة تنم عن الرعب والحيرة ، سألته بدون لف او دوران :

« هل انقضى وقت طويل منذ تركك هناك ؟ »

قال ، متجنبا الرد : « تركي اين ؟ »

كان انصراف صاحبة البيت قد محى عن وجهه الحبور الذي كان قد اصطنعه قبلا .

ولم يبق اي اثر للمجون الشائع بين اغلبية الحُدْب ، الذين لهم من الذكاء ما يجعلهم يخبئون ظهورهم ولهم من الكبرياء ما يجعلهم لا يقاسون من ذلك . وخيل لي انه لم يتمالك نفسه بعد ، وانه بفعل قوة الاستمرار كان ما يزال متعبا يتابع التظاهر بأنه شيء آخر غير ما هو فعلا .

« اقلع عن هذا » ، قلت بهدوء . « لقد عرفتك منذ النظرة الاولى . اننا كلانا من المكان ذاته . اننا قريبان ، بمعنى من المعاني » . وهمست في اذنه : **بخنتس ! بخنتس !**» ، لاذكّره بالاسم المقدس عندنا كلينا .

« ما الذي قلته ؟ ... اتدري ، انت ايضا تبدو لي وكأن فيك شيئا مألوفا اليّ . اين يمكن ان اكون قد رأيتك قبلا ؟ »

ومسح على جبينه ، وقطب حاجبيه ، وزم شفتيه . كانت حركات وجهه اقرب الى ان تكون بشرية ، ومن جديد حسدته على اسلوبه الخارق الذي تمرن عليه كثيرا ، ولو ان تهريجاته هذه التي لجأ اليها بعناية كانت قد بدأت تغيظني .

صاح ، متابعا تهريجه : « بالطبع ! الم تكن تعمل ذات مرة في دائرة المعدات المكتبية ؟ كان المدير هناك في ١٩٤٤ ياكوف سولومونوفيتش زاك — يهودي ضئيل طيب ... »

اجبت بحدة : « لا اعرف اي شخص اسمه زاك . لكنها اعرف جيدا انك انت ، ليوبولد سيرغفتش ، لست بليوبولد سيرغفتش مطلقا ، ولست باحدب ، مع انك تحمل حدبتك عارضا اياها في كل مكان . كفانا تظاهرا الآن . وبعد ، فان الخطر الذي اعرض نفسي اليه ليس اقل من الذي تعرض نفسك انت اليه » .

وجن جنونه فعلا :

قال : « كيف تجرؤ على ان تقول لي من انا ؟ تفسد عليّ علاقتي مع صاحبة البيت ، ثم تهينني انا ايضا ! اذهب وجد لنفسك امرأة بديعة مثل هذه ، وبعد ذلك يحق لك ان تتحدث عن نواقصي الجسدية . انك اكثر حدبا مني ! اتسمعني ؟ انك تبعث الاشمئزاز اكثر مما ابعثه انا . ايها المسخ ! ايها الاحدب ! ايها الكسيح الحقير ! »

وفجأة انفجر ضاحكا واخذ يضرب رأسه بكفه : « لقد تذكرت الآن ! لقد رأيتك في المصبغة . ان الشبه الوحيد بيننا هو هذا ، اننا نرسل غسيلنا للتنظيف في المكان ذاته » .

هذه المرة لم اشكك في اخلاصه . اجل ، انه فعلا يعتقد انه ليوبولد سيرغفتش . لقد تلبس دوره تلبسا تاما ، اصبح كاهالي البلاد ، اصبح بشريا ، عود ذاته تعويدا مبالغا فيه على البيئة التي هو منها ، واستسلم للتأثيرات الاجنبية . لقد نسي اسمه السابق ، وخان

وطنه البعيد ، وان لم يهرع احد لاغاثته فانه هالك لا محالة .

واخذته من كتفيه وهززته بحذر . هززته ، ورجوته بطريقة رفيقة ودية ان يتذكر ، ان يحاول ان يتذكر ، ان يعود الى ذاتـه الحقيقية . وما الذي يريده من كوستريتسكايا تلك ، التي ينضح منهـا مثل ذلك العبير السام ؟ فحتى بين ابنـاء البشر ، النزعة البهيمية ليست مجلبة للاحترام . وفـوق هذا ، فان خيانة الوطن ، حتى وان كانت بدون سابق قصد وتصميم ، وان كانت بفعل نسيان عادي ...

« **بخنتس ! بخنتس !** » ، تلفظت بها مرة بعد مرة ، واعدت كلمات اخرى كنت ما زال اتذكرها .

وفجأة وصلني دفء من خلال سترته الخشنة ، منبعث من مكان لا يدري كنهه احد . وراحت كتفاه تزدادان سخونة شيئا فشيئا ، واضحتا ساخنتين سخونة يـدي فيرونيكا ، وآلافٍ من الايدي الساخنة الاخرى التي آثرت الا اصافحها عند التحية .

« سامحني » ، قلت له ، وانا اخفف من قبضة يدي . « يبدو ان خطأ ما قد حصل . سوء تفاهم مؤسف . فالواقع اني – كيف استطيـع ان افسر هذا لك ؟ – عرضة لنوبات عصبية تصيبني ... »

في تلك اللحظة سمعت صوتا عاليا فظيعا ، والتفتّ ، فـاذا بالصبي يرقص من خلفي ، على بعد ما عني ، ويتوعدني بسيفه .

صاح : « اترك ليوبولد وشأنه ! ايها الرجل الشرير ! اترك ليوبولد وشأنه ! امي تحبه . انه ابي ، انه ليوبولدي انا ، لا ليوبولدك انت ! »

لم يكن ثمة مجال للشك . لقد ظننته شخصا آخر . لقد كان كائنا بشريا طبيعيا ، اكثر الكائنات البشرية طبيعية ، سواء كان ذا حدبة او لم يكن .

اشعر كل يوم باني اسوأ مني في اليوم السابق له . لقد حل الشتاء – وهو ابرد الفصول في هذا الجزء من العالم . ولم اعد اخرج من البيت مطلقا .

ومع هذا، فمن الاثم ان اتذمر . بعد عطلة تشرين الثاني (نوفمبر) تقاعدت على المعاش. لا احصل مبلغا كبيرا ، لكن بالي اكثر هدوءا الآن . والا فكيف كنت لاستطيع تدبير اموري اثناء مرضي الاخير ؟ لم اكن لاستطيع ان اوفر من القوة ما يمكنني من الذهاب الى المكتب والعودة منه ، والحصول على تقرير مرضي من الطبيب كان ليثير الحرج ويجتذب المخاطر . فهل كان معقولا ان اسمح لطبيب بان يفحصني وقد بلغت من العمر هذا الحد

الذي بلغت ؟ ان هذا كان ليحمل لي الدمار .

احيانا اسائل ذاتي سؤالا ماكرا : لماذا في الواقع لا اجعل وضعي وضعا قانونيا ؟ لماذا صرفت ثلاثين عاما اتظاهر باني شخص آخر ، كأني مجرم ؟ « اندريه كازيميروفيتش سشينسكي . نصف بولندي ، نصف روسي . العمر ٦١ سنة . مشوه . ليس عضوا في الحزب . اعزب . لا اقرباء له ، ولا اولاد . لم يسافر للخارج قط . ولد في اركوتسك . الاب : كاتب . الام : ربة بيت . كلاهما ماتا بالكوليرا في ١٩٠١ ». وهذا كل شيء .

وماذا يحدث ان انا ذهبت الى الشرطة ، واعتذرت ، ورويت لهم القصة كلها ببساطة ، مفسرا كل شيء كما حدث ؟

كنت لاقول : حسنا اذاً ، هذه هي القصة . تستطيعون بانفسكم ان تروا — انامخلوق من عالم آخر . لا من افريقيا ولا من الهند ، ولا حتى من المريخ او من اية من زُهراتكم ، بل من مكان ابعد بكثير والوصول اليه اشد صعوبة . بل ليست لديكم اسماء لمثل هـذه الاماكن ، واذا نثرتم امامي كافة خرائط النجوم وبياناتها الموجودة لديكم ، فاني بالحقيقة لن استطيع ان اريكم اين هي تلك النجمة الرائعة ، مسقط رأسي .

فانا ، بدء ذي بدء ، لست خبيرا في القضايا الفلكية . ذهبت حيث اخذوني . ثانيا ، الصورة مختلفة تمام الاختلاف ، وليس بوسعي ان اتعرف الى سماواتي الحبيبة من كتبكم وخرائطكم واوراقكم . حتى في الوقت الحاضر ، اخرج في الليالي الى الشارع ، وانظر الى العلاء واتطلع — لكنها ليست هي . بل اني لا اعرف في اي اتجاه اوجه توقي وحنيني . قد يكون انه من هنا تستحيل رؤية شمسي ، فكم بالحري رؤية ارضي ايضا. قد تكون واحدة من تلك الكواكب التي في الجزء الآخر من المجرة . من يستطيع ان يقول ؟

ارجوكم الا تظنوا اني جئت الى هنا لقصد ما خبيء . هجرة الشعوب ، وحرب العوالم ، وكل هذا الهراء . وعلى كل ، فانا لست بالرجل العسكري ، ولا بالعالم ، ولا بالجوالة الرائد . مهنتي مسك الدفاتر — مهنتي هنا ، اقصد . اما ما كنت افعله في السابق فمن الافضل الا اجيء على ذكره — فانكم لن تفهموا شيئا ان انا فعلت .

هذا ولم نكن نهدف ابدا الى الاقلاع في الفضاء . كل ما في الامر اننا كنا في طريقنا الى مكان نقضي فيه عطلتنا . ثم حدث شيء ونحن في الطريق — لنقل انه كان نيزكا ، لتسهيل الامر عليكم — ففقدنا الجاذبية ، وسقطنا ، في المجهول ، طوال سبعة اشهر ونصف الشهر لبثنا نسقط — لكنها اشهرنا نحن لا اشهركم — وهبطنا هنا بمحض الصدفة.

وعندما عدت الى رشدي ، نظرت من حولي — كان جميع ارفاقي قد هلكوا .

فدفنتهم كما ينبغي ، وبدأت احاول ان اكيف ذاتي .

كان كل شيء من حوالي غريبا مضطربا . في السماء كان يشتعل قمر ضخم اصفر — لكنه مفرد . كان الهواء غير الهواء ، والضوء غير الضوء ، وقوى الجاذبية والضغط كانت كلها غريبة . ماذا استطيع ان اقول ؟ كانت شجرة الصنوبر العادية جدا تؤثر في حواسي ، المختلفة عن حواس هذه الارض ، كما يؤثر فيكم القنفذ .

اين اذهب ؟ على المرء ان يأكل ويشرب . انا بالطبع لست بالانسان ولا بالحيوان ؛ واميل الى عالم النبات اكثر مما اميل الى اي شيء آخر موجود عندكم هنا ؛ لكن لدي انا ايضا حاجات اولية . اول شيء احتاج اليه هو الماء ، لتعذر وجود نوع افضل من الرطوبة ، ويفضل فيه ان يكون على درجة معينة من الحرارة ، واحتاج من حين لآخر الى اضافة الاملاح الناقصة الى الماء الذي اشربه . وفوق هذا ، فقد احسست ببرد متزايد في الجو المحيط بي . ولا حاجة بي لان اذكركم بما في سيبيريا من صقيع .

لم يكن بوسعي ان افعل شيئا ، وكان علي ان اترك الغابة . وكنت قد صرفت الايام السابقة اراقب الناس من وراء الشجيرات واحصي حركاتهم . ادركت في الحال انهم مخلوقات عاقلة ؛ لكني كنت متخوفا اول الامر من انهم سيأكلونني . وغطيت ذاتي بلفة من الخرق (كانت هذه سرقتي الاولى ، ويمكن غفرانها نظرا للظروف التي حدثت بها) وخرجت من الايكة ووجهي كله يفيض بامائر الود .

ان شعب ياقوت شعب مضياف حسن الطوية . منهم تعلمت ابسط العادات البشرية . ومن ثم انتقلت الى المناطق الاكثر تحضرا . فتعلمت اللغة ، وحصلت على المعرفة ، ودرست الرياضيات في مدرسة ثانوية في مدينة اركوتسك . وسكنت في القرم زمنا ، لكني سرعان ما تركتها بسبب الطقس : فهو حار شديد الحرارة في الصيف ، وخال من الدفء في الشتاء ، بحيث لا غنى للمرء عن شقة مدفئة تدفئة كهربائية ، ومثل هذه الوسائل لم تكن شائعة جدا هناك في العقد الثالث من القرن وكانت تكلف مبالغ ضخمة ، اكثر بكثير مما كان يستطيع جيبي ان يتحمل . وهكذا فاني استقريت في موسكو ، وما زلت فيها منذ ذلك الحين .

لو اني رويت هذه القصة المحزنة ، مهما كان الشخص الذي ارويها له ، ومهما عدلت فيها ببراعة للقارىء العام ، فان احدا ما لن يصدقني ، لن يصدقني ابدا . لو ان بامكاني ان اذرف الدموع ، كما تستدعي قصتي — لكن رغم اني دربت ذاتي على الضحك ، بطريقة من الطرق ، فاني لا اعرف كيف ابكي . سيعتقدون اني مجنون ، حالم ، بل انهم قد يقدمونني للمحاكمة لحيازتي جواز سفر غير صحيح ولتزويري توقيعات واختاما ولنشاطات

غير شرعية اخرى .

واذا حدث ، على نقيض ما يقول به العقل ، ان صدقوني ، كانت الحالة اسوأ .

ذلك ان اساتذة الجامعات سيتجمهرون عليّ من كافة الجامعات في كل مكان ـ فلكيون ، ومهندسون زراعيون ، وفيزيائيون ، واقتصاديون ، وجيولوجيون، ولغويون، وعلماء نفسانيون ، وعلماء حياة، وخبراء بالجراثيم ، وكيميائيون، وعلماء كيمياءحيوية ـ ليدرسوني حتى آخر ذرة في جسمي ، غير غافلين عن شيء . ولن ينقطعوا عن طرح الاسئلة ، والاستجواب ، والامتحان ، واستئصال المعلومات .

وستنتشر الرسائل الجامعية عني ، والافلام ، والقصائد ، في ملايين من النسخ . وستشرع النسوة يستعملن اخضر الشفاه، ويلبسن قبعات تشبه الصبير، او اذا عجزن عن ذلك فعلى الاقل تشبه ورق المطاط، وسينعم الحُدْب جميعا ، لمدة سنين في المستقبل ، بنجاح باهر في علاقاتهم مع النساء .

وستسمى سيارات باسم وطني ، وسيسمى باسمي مئات من الاطفال المولودين حديثا، بالاضافة الى الشوارع والكلاب . وساصبح شهيرا شهرة ليو طولستوي ، او غليفر ، او هرقل . او غاليليو غاليلي .

لكن بالرغم من هذا الاهتمام العام بشخصي الوضيع ، لن يفهم احد شيئا . وكيف يفهمونني ، ما دمت اعجز انا ذاتي تمام العجز عن التعبير عن طبيعتي اللابشرية بلغتهم هم؟ ادور حول الموضوع ، واحاول الوصول الى شيء عن طريق المجاز والاستعارة ، لكن عندما يصير لزاما ان اقول شيئا في الصميم ، لا اجد ما اقوله . لا استطيع ان ارى الا « غوغْري » قصيرة صلبة ، ولا ان اسمع الا « فزْغْلياغو » سريعة ، و « بْخَنْتْس » جميلة جمالا يفوق الوصف تتألق في جسدي . هذه المفردات اخذ عددها يتضاءل تدريجيا في ذاكرتي . ولا استطيع ان انقل بنيانها باللفظ البشري الا بشكل تقريبي . واذا ما احاط بي لغويون من كل جانب وسألوني : « بماذا تسمي هذا » ، فلن يكون بمقدوري اكثر من ان اقول : « غوغْري توجروسْكيب » ، وان اهز كتفي مقرا بعجزي .

لا ، سيكون من الافضل لي ان اتحمل معيشتي وحيدا ومتنكرا . فاذا ما وجد شيء خاص جدا مثلي ، فعليه ان يوجد دون ان يلتفت الى وجوده احد . وان يهلك دون ان يلتفت الى هلاكه احد .

لكن عندما اموت – وسأموت عما قريب – فانهم قد يحتفظون بي في وعاء زجاجي ، ويخللونني بالكحول ، ويعرضونني في احد متاحف التاريخ الطبيعي. وسيمر الناس بي صفا تلو صف ، وسيرتجفون خوفا وسيضحكون ضحكات استهزاء كيما يداروا على خوفهم ، وسيقولون باشارة اشمئزاز : « يا الله ، اي مخلوق شاذ هذا ، اي

مسخ شديد البشاعة ! »

لست مسخا، اقول لكم ! أ لمجرد اني مختلف عنكم ، تجدون لزاما ان تتصرفوا معي بوقاحة ؟ لا فائدة من قياس جمالي بمقياس قباحتكم . انا اشد منكم وسامة ، واكثر طبيعية . وكلما نظرت الى ذاتي تبين لي ان لديّ دليلا ، هو بصري انا ، على ذلك .

قبيل مرضي ظهر فى الحمام صدع . اكتشفت ذلك في وقت متأخر من احدى الليالي ، وادركت ان كوستريتسكايا هي التي فعلت ذلك ، كيما تغيظني . ولم اكن لاتوقع اية مساعدة من المسكينة فيرونيكا . فكانت فيرونيكا مستاءة مني منذ تلك الحادثة يوم قدمت لي اغلى ما تملكه ، من وجهة النظر البشرية ، وذهبت اتنزه بدلا من ذلك .

لقد تزوجت بالممثل من مسرح ستانيسلافسكي ، وتصلني احيانا اصوات قبلاتهما من خلال الجدار الرقيق . سررت فعلا بذلك ، من اجلها هي ، بل اني ارسلت لهما يوم زفافهما ، دون ان اذكر اسم المرسل ، كعكة ثمنها ١٦ روبلا ، وقد نقشت عليها الحروف الاولى من اسمها وبعض الزخارف الاخرى بالشوكولاتة .

غير اني جائع جوعا لا يصدق ، وقد اعطبت كوستريتسكايا الحمام بقصد اهلاكي . وبانتظار تصليح الحمام فقد سد الثقب الذي ينبعث منه الماء بسدادة من خشب ، فانقطع حبل الماء . وهكذا ، فنعدما اوى كل واحد الى فراشه وصار بوسعي ان اسمع الشخير يتعالى من الطابق العلوي ومن الطابق السفلي ومن جميع الغرف الى هذا الجانب مني وذاك ، نزعت دلو فيرونيكا عن المسمار الذي كان مسنودا اليه في المرحاض ، حيث يتعلق هو وادلاء بقية جيراني. وانبعث عنه صوت كصوت الرعد وانا اجرجره على طول الممر، وتوقف احد النائمين في الطابق السفلي عن شخيره . لكنني انجزت مهمتي ، وغليت غلاية بالماء الساخن في المطبخ ، وملأت سطلا بالماء البارد ، وحملت كل هذا الى غرفتي ، واقفلت الباب عليّ ، واثبتّ المفتاح في الثقب .

باية لذة شعرت حينما خلعت عني ملابسي ، ونزعت شعري المستعار ، واستأصلت اذنيّ المصنوعتين من مطاط حقيقي ، وحللت الاربطة التي تشد ظهري وصدري. وتفتّح جسدي كأنه سعفة نخلة احضرت للبيت من دكان ملفوفةً في ورقة . وعادت الى الحياة والحركة جميع الاعضاء التي كانت قد اضحت خدرة خلال النهار .

ركزت ذاتي في الدلو ، واخذت اسفنجة في يد لاعصر الماء فوق كافة الاماكن الناشفة ، وامسكت بالغلاية في يدي الثانية . واخذت كوزا من الماء البارد في يدي الثالثة ، واضفت اليه شيئا من الماء الساخن ، واختبرته بيدي الرابعة ، اليد الاخيرة المتبقية لي ، لاتأكد انه لم يصبح ساخنا جدا . آه ، اية راحة منعشة !

تشرب جلدي بسهولة هذا السائل الثمين الذي كان ينصب عليه من عل من الكوز المطلي بالميناء. وعندما كانت آلام الجوع الاولى قد انقضت، عزمت على تفحص ذاتي عن كثب، كيما ازيل عني المواد اللزجة المؤذية التي افرزتها مسامي وتخثرت في بعض المواضع في جلط بنفسجية اللون ناشفة. اجل، كانت عيوني في ايديّ وقدميّ وعلى قمة رأسي وفي قفا رقبتي قد بدأت تضعف كثيرا، نظرا لاحتجابها خلال النهار وراء اثواب خشنة وشعر مستعار. وكنت قد خسرت احدى عيوني في ١٩٣٤، عندما اعماها الاحتكاك بحذائي الايمن. ولم يكن من السهل عليّ القيام بتفحص شامل فعلا لذاتي.

غير اني برمت رأسي، غير مكتف بتحريكه حتى نصف دائرة – المائة والثمانين درجة الزهيدة المتاحة للرقبة البشرية – واخذت اطوف في وقت واحد بجميع عيوني التي تبقت سالمة، طاردا التعب والعتمة، وافلحت في رؤية نفسي من جميع الجهات ومن زوايا عديدة مختلفة في الوقت ذاته. كم كان مدهشا، ذلك المنظر، وكم هو محزن انه متاح لي وحدي فقط وفي ساعات الليل القصيرة دون سواها. فما عليّ الا ان ارفع ذراعي، فارى ذاتي من السقف، كما لو اني احلّق وارفرف فوق ذاتي. وفي الوقت نفسه، بفضل العيون الباقية، لا ادع اجزائي التحتانية ولا الخلفية ولا الامامية ولا ايا من فروع جسدي المنتشرة، تغيب عن بصري. لو اني لم اكن قد عشت اثنتين وثلاثين سنة في المنفى، لعلي لم اكن لاحلم قط بالتفرج على مظهري الخارجي والاعجاب به، لكني، في هذا المكان، المثال الوحيد على ذلك الاتساق، ذلك الجمال، الفقيد – الذي اسميه موطني. فما الذي استطيع ان افعله في هذه الارض سوى ان اتلذذ برؤية ذاتي؟

صحيح، ان يدي الخلفية قد اعوجت تبعا لاضطرارها على الدوام للقيام بدور حدبة بشرية. صحيح، ان يدي الامامية قد شوهتها الاطواق الى حد ان اصبعين من الاصابع قد ذوتا، وجسمي الهرم قد فقد اللدونة التي كانت له فيما مضى. لكني ما ازال جميلا مع هذا كله! متناسب القوام! انيقا! بالرغم مما قد يقوله المنتقدون الحاسدون.

بهذه الامور كنت افكر، وانا اسقي ذاتي من الكوز المطلي بالميناء، في الليلة التي عزمت كوستريتسكايا فيها ان تقضي عليّ عن طريق الحمام المشقوق. لكن ما حل الصباح حتى كنت قد مرضت. لا بد اني اصبت بالبردية وانا في الدلو. وابتدأت بذلك اسوأ فترة من فترات حياتي.

لبثت اسبوعا ونصف اسبوع مستلقيا على سريري القاسي، وشعرت باني اجف شيئا فشيئا. لم تكن لديّ القوة للذهاب الى المطبخ طلبا لبعض الماء. كان جسمي، المقمط بالتبكام في رزمة بشرية، قد اصبح خدرا هامدا. واخذ جلدي الناشف يتشقق. ولم يعد بوسعي ان اجلس في سريري لاخفف من قيودي، الحادة كما لو انها من اسلاك.

وهكذا انقضى اسبوع ونصف اسبوع ، ولم يدخل عليّ احد .

ورحت اتخيل جيراني يتلفنون للعيادة الطبية ، وقد اخذ منهم الفرح كل مأخذ ، عند مماتي . وسيأتي مأمور المنطقة الطبي ليتحقق من سبب الوفاة ، وسينحني فوق السرير ، وسيقص ثيابي واربطتي واطواقي بمقصه الجراحي ، وسيتراجع مرتعبا ويعطي اوامره بان تسلم جثتي الى اكبر وافضل قاعة تشريح في اسرع وقت ممكن .

وها هي ـ قنينة الكحول ، الكاوي كعطر كوستريتسكايا ! وسيقذفون بي ، حتى آخر الزمن ، انا المسخ ، اعظم مسخ على الارض ، الى القنينة السامة ، الى الجب الزجاجي ، الى التاريخ ـ لتثقيف الاجيال القادمة .

وبدأت ائن ، بهدوء اول الامر ، ومن ثم بصوت اعلى واعلى ، بلغة بشرية مقيتة لكن لا غنى عنها : « ماما ، ماما ، ماما » ، كنت ائن ، محاكيا تنغيم طفل يبكي ومحاولا ان استدر شفقة اي امرىء يصل سمعه انيني . لبثت ساعتين ، اصرخ طالبا الاستغاثة ، اقسمت خلالها باني ان قدر لي العيش فاني ساحتفظ بسري حتى النهاية ، ولن اسمح لهذه القطعة الاخيرة من موطني ، لهذا الجسد الجميل ، ان يقع في ايدي الاعداء ليمزقوه ويهزأوا به .

ودخلت فيرونيكا . كانت قد هزلت كثيرا ، وكانت عيناها ، وقد تخلصتا من الحب ومن الغضب ، هادئتين تنظران بغير اكتراث .

« ماءً ! » انبعث صوتي كالنقيق .

قالت فيرونيكا : « ان كنت مريضا فعليك ان تنزع ثيابك وتقيس حرارتك . سأستدعي الطبيب ، وسيفصدك » .

الطبيب ! يفصدني ! انزع ثيابي ! والآن ستلمس جبيني ، البارد كجو الغرفة ، وستتحسس باصابعها المشتعلة نبضاتي التي لا وجود لها . غير ان فيرونيكا لم تفعل اكثر من ان سوّت المخدة ، وعندما مست يدها عن غير قصد شعري المستعار سحبتها في الحال باشمئزاز . واضح ان جسدي لم يثر فيها غير القرف ، شأنها في ذلك شأن جميع البشريين الآخرين .

« ماء ! ماء بحق السماء ! »

« اتريد ماء باردا او مغليا ؟ »

في النهاية خرجت وعادت بابريق ماء . ومسحت كوبا يعلوه الغبار ، ببطء ساهم كدت اعتقد ان مبعثه الانتقام مني ، لولا اني اعرف انها لا تعرف شيئا .

قالت : « تعرف ، يا اندريه كازيميروفيتش ، اني احببتك فعلا . واضح لي انياحببتك ـ كيف اقول ـ بتأثير الشفقة ... الشفقة على كائن بشري وحيد كسيح ـ واسمح لي ان

اكون صريحة . لكني احببتك جدا ... لم الاحظ ... نواقص جسدية ... بالنسبة لي كنت اجمل انسان على الارض ، يا اندريه كازيميروفيتش... اكثر ... انسان .وعندما سخرت مني بتلك القسوة ... اضع حدا لحياتي ... احببت ... لن اخبىء عنك ... رجلا اهلا بالمحبة ... احببت ... رجلا ... بشريا ... بشرية ... انسان لانسان ... »

قاطعتهـا ، اذ لم اعد اتحمل : « ارجوك ، يا فيرونيكا غريغوريفنا . اسرعي . ماء ... »

« بشري ... رشبي ... بشرابو ... بشري ... ربشي ... شربي ... بشرابو ... بشري ... »

« ماء ! ماء ! »

ملأت فيرونيكا الكوب ورفعته فجأة الى فمي مباشرة . قعقعت اسناني المستعارة على الزجاج ، لكني لم استطع ارغام ذاتي على تقبل السائل في داخلي . فانا احتاج للشرب من العلاء ، كأني زهرة او شجرة تفاح ، وليس عن طريق الفم .

اخذت فيرونيكا تحثني : « اشرب ، اشرب ! الم تقل انك تريد ان تشرب ؟... »

دفعتها عني وجاهدت حتى استقمت في جلستي وانا اشعر كأني قد متّ فعلا. وانساب الماء خارجا من فمي وسال على السرير . وتمكنت من التقاط بعض نقط منه في راحتي .

« ناوليني الابريق وانصرفي » ، امرتها بكل ما تبقّى لي من حزم . « اتركيني في هدوء ! سأشربه لوحدي » .

وسالت من عيني فيرونيكا قطرات دمع بطيئة .

قالت : « لماذا تكرهني ؟ مـا الذي فعلته لك ؟ لقد كنت انت الذي ابيت حبي ، انت الذي رفضت شفقتي ... انك شرير سيء ليس الا ، يا اندريه كازيميروفيتش ، انك رجل رديء جدا » .

« ان كانت ما تزال فيك قطرة واحـدة من الشفقة ، يافيرونيكا ، فاذهبي ، ارجوك ، استعطفك ، اذهبي ، واتركيني لوحدي » .

خرجت مكتئبة . وعندها فككت ازرار قميصي والصقت الابريق بصدري ،وعنقه مصوب للاسفل .

وضاء واضطراب في الطبيعة . كل شيء في حمى هيجان . الاوراق تنبثق متسارعة . الدوري تزقزق باصوات مهتزة . الاطفـال يهرعون الى امتحاناتهم . اصوات

المربيات في الخارج هستيرية حادة . الهواء له نكهة خاصة . رائحة كوستريتسكايا تعم المكان كله ، بجرعات صغيرة . حتى الصبيرات على عتبة شباكي ينبعث عنها في الصباح اريج كأريج الليمون . ينبغي الا انسى ان اقدم صبيرا لفيرونيكا قبل رحيلي .

عليّ ان اعترف ان مرضي الاخير قد فعل فعله بي . فهو لم يهدم جسمي فحسب ، ولكنه شلني روحيا كذلك الحال . تنتابني من حين لآخر رغبات غريبة . فقد اشعر بحافز يحثني على الذهاب الى السينما . او قد ارغب في لعب الداما مع زوج فيرونيكا . يقال انه لاعب داما وشطرنج من الطراز الاول .

قرأت اوراقي من جديد ، ولم تبعث فيّ كثيرا من الرضى . في كل عبارة فيها تحس بأثر لمحيط غريب . ما الفائدة لاي قارىء من هذا الهذر الفارغ بلهجة محلية ؟ ينبغي الا انسى ان احرقها قبل رحيلي . فانا لا انوي عرضها على الناس . وقومي لن يقرأوها قط ولن يسمعوا شيئا بخصوصي . لن يطيروا هذا البعد السحيق الى هذا المكان غير المتحضر .

اضحى اصعب عليّ واصعب ان اتذكر الماضي . مفردات قليلة وحسب بقيت في ذاكرتي من لغتي الاصلية . بل اني نسيت كيف افكر كما اعتدت ان افكر ، فكم بالحري ان اقرأ او اكتب . اتذكر شيئا ما جميلا ، لكن ما هو على وجه الدقة . لست اعرف .

يخيل اليّ احيانا اني قد خلفت اولادا في وطني . صبيرات صغيرات رائعة . لا بد انهم قد اصبحوا كبارا الآن . فاسيا يذهب الى المدرسة . المدرسة ، اقول ؟ لا بد انه قد اصبح شابا بالغا قويا . لقد تخصص بالعلوم الهندسية . وماشا قد تزوجت .

يا الهي ! يا الهي ! يبدو اني اتحول الى بشري !

لا ! ليس لهذا تحملت اثنتين وثلاثين سنة من العذاب ، ليس لهذا تمددت على سرير قاسٍ بدون ماء في الشتاء الماضي . لماذا شفيت ، الا لسبب واحد ، هو انه حالما يصبح الطقس دافئا فاني ساختبىء في مكان ما هادىء واموت فيه من غير ان يثير موتي ضجة ؟ هذه هي الطريقة الوحيدة لاتمكن من الاحتفاظ بما تبقّى مني .

كل شيء جاهز لرحيلي : تذكرة القطار الى اركوتسك ، صفيحة للماء ، مبلغ محترم من المال . فمعي تقاعدي كله تقريبا لفصل الشتاء في دفتر التوفير . ولم اصرف شيئا على معطف فرو ولا عربات الترام او حافلات الترولي . ولم اذهب مرة واحدة الى السينما خلال ذلك الوقت كله . وقد انقضت الآن اشهر ثلاثة منذ توقفت عن دفع ايجار . ومجموع ما معي ١٦٥٧ روبلا .

بعد غد ، عندما يأوي كل واحد الى فراشه ، سأترك البيت بدون ان ينتبه لخروجي احد ، وآخذ سيارة اجـرة الى المحطة . وتزعق صفارة القطار – واصبـح لكم نسيا منسيا . غابات ، غابات خضراء كجسد امي ، ستتقبلني فيها وستخبئني وتغطيني .

سأصل اليها ، بطريقة او باخرى . سأستأجر قاربا ، لجزء من الطريق. المسافة حوالي ٣٥٠ كيلو مترا . وكلها عن طريق النهر . الماء الى جانبي مباشرة . اغمس ذاتي فيه ثلاث مرات كل يوم ، اذا طاب لي .

كانت ثمة حفرة . ساظل افتش حتى اعثر عليهـا . حصلت نتيجة سقوطنا . سأضع خشبا حولهـا من كل جانب . العرعر يشتعل كالبارود . سأستلقي في الحفرة ، وافـك الاربطة والاطـواق عني ، وانتظر . ولن افكر فكرة بشرية واحدة ، ولن اسمع لفظة واحدة بلغة غريبة .

وعندما تهطـل الثلوج الاولى ، وادرك ان الوقت قد حان – سيكون عود واحـد من الثقاب كافيا . ولن يتبقى مني شيء .

لكن ذلك الوقت ما يزال بعيدا جدا . ستأتي ليالٍ كثيرة دافئة وحلوة . وستلتمع نجوم عديدة في السماء في الصيف . اية منها ... من يدري ؟ ساحدق فيها جميعا ، فيهـا معا وفي كل بمفردها ، سأحدق فيها بعيوني كلها . احداها نجمتي انا .

آه يا موطني ! «بْخَنْتْس ! غوغْري توجروسْكيب !» انا عائد اليك. «غوغْري ! غوغْري ! غوغْري ! توجروسْكيب ! توجروسْكيب ! بونْجـور ! غوتينـابِنْد! توجروسْكيب ! بو–بو–بو– ! مْياوْ ، مْياوْ ! بْخَنْتْس ! »